المبحث العاشر

العقائد

- التوحيد والتنزيه
- التأويل فى آيات الصفات
- التشبيه والتجسيم
- القَدَر
- الرؤية فى الآخرة
- البَداء

التوحيد والتنزيه

● عقيدة أهل السُّنَّة

● عبر الإمام أبو حامد الغزالى عن عقيدة أهل السُّنة فى التوحيد والتنزيه فقال: «إن الله تعالى في ذاته واحد لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، صمد لا ضد له ، منفرد لا ند له . وإنه واحد قديم لا أول له ، أزلى لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له . لم يزل ولا يزال موصوفًا بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفضال بتصرم الآباد وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.» (١)

– وقال ابن حزم: «إن الله تعالى خالق كل شيء سواه، لا خالق سواه. ولا يشبهه عز وجل شيء من خلقه فى شيء من الأشياء . وإنه تعالى لا فى مكان ولا فى زمان ، بل هو تعالى خالق الأزمنة والأمكنة.» ويثبت ابن حزم: «لله عز وجل عزًا وعزةً وجلالاً وإكراماً ، ويداً ويدين وأيدياً ، ووجهًا وعينًا وأعْيُنًا ، وكبرياء . وكل ذلك حق ، لا يرجع منه ولا من علمه تعالى وقدره وقوته إلاَّ إلى الله تعالى ، لا إلى شيء غير الله عز وجل أصلاً ، مقر من ذلك مما فى القرآن وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله.»

–«وإن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ؛ وهو فعلٌ يفعله ، عز وجل، ليس حركة ولا نقلة.» (٢) وهذه عقيدة الظاهرية .

● عقيدة الشيعة

وعبر الشيرازى عن عقيدة الشيعة الإمامية فقال : «نعتقد بوجود الله سبحانه. وهو واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ١ ص ٨٩

(٢) المحلى ؛ جـ ١ – أرقام ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ . ٦٢ – ص ٢٩ – ٣٣

لا إله إلا هو العزيز الحكيم ليس له جسم ولا صورة ، ولا يحل فى جسم ، ولا يحدَّد بمكان . ليس بعَرض ولا جوهر ، بل هو خالق العَرَض والجوهر ، وخالق كل شيء ، منزَّه عن جميع الصفات التى تشبهه بالممكنات . وهو الغنى المطلق ، والكل محتاج إليه على الإطلاق ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . » [١]

ويؤكد كاشف الغطاء أن عقيدة الشيعة الإمامية هى : التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوقين أو ملابسة لهم فى صفة من صفات النقص . وهم يعتبرون تاليه الأئمة من أشنع الكفر والضلالات . ولذلك يعتبر الإماميةُ الفرقَ الغاليةَ من الفرق الهالكة ، كالقرامطة ، ويتبرأون منهم براءة التحريم . [٢]

وبصفة عامة ، أثبت الشيعة الإمامية لله تعالى من الصفات ما أثبته القرآن الكريم . وقسموا الصفات إلى :

أ – صفات ذاتية ، مثل العلم والحياة ، وهى صفات لا يمكن أن يوصف الله تعالى بأضدادها ، فهو القادر الذى لا يوصف بالعجز ، والعادل الذى لا يوصف بالظلم ، والعالم الذى لا يوصف بالجهل .

ب – وصفات أفعال تُنسب إلى الله تعالى كما يُنسب إليه ضدها ، فهو سبحانه يعطى ويمنع ، ويحيى ويميت ، ويوجد ويُعدِم .

وأقر الشيعة الإمامية صفات الله التى وصفه بها حُجج الله من خلفاء نبيِّه . [٣] **وهذه مسألة خلافية مع أهل السُّنة الذين لا يقبلون أن يُوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيُّه .**

وقد اختلف الشيعة فى العقائد كما اختلف أهل السُّنة . فمذهب الإمام

---

(١) ليالى بيشاور ؛ ص ٨٢ – ٨٣

(٢) أصل الشيعة وأصولها ؛ ص ١٠٢ – ١٠٣ ، ص ١٠٦

(٣) أبو زهرة ؛ الإمام الصادق ؛ الفقرة رقم ١٨٥ ص ٢٣٣ – ٢٣٤

علي وابن عباس متفق مع المذهب الذى اتخذه الصحابة ، من إثبات الصفات والقَدَر . (١) ولما ظهر الاعْتزَال ، واختلط الشيعة بالمعتزلة ، تأثروا بهم . **فيقول الشيخ أبو زهرة :إن الأسلم أن يقال إن الإمامية أقرب إلى المعتزلة فى كثير من آرائهم فى أصول الدين ، لكن ذلك لا يعنى أنه لا خلاف بين الطائفتين .** (٢)

واختلف أهل السُّنة فيما بينهم ، كما اختلفوا مع المعتزلة . ويصف الإمام محمد عبده ما حدث فيقول : «**إن الأشعرى سلك مَسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وبين تطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر.** وارتاب فى أمره الأولون ، وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكَفَّره الحنابلة واستباحوا دمه . ونَصَرَه جماعة من أكابر العلماء كأبى بكر الباقلانى ، وإمام الحرمين ، والاسفراييني وغيرهم ، وسمَّوا رأيه بمذهب أهل السُّنة والجماعة ... فانهزم بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر وقوة ــ الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر.» (٣)

والقوتان العظيمتان المشار إليهما هنا هما السلفيون والمعتزلة .

● التأويل

وتعددت المذاهب خاصة فى تأويل الآيات القرآنية التى توصف بالمتشابهات والتى تتحدث عن صفات الله تعالى . وينقل «السيوطي» عن «ابن اللبان» قوله فى المتشابه من آيات الصفات ، فأورد منه قوله تعالى ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [طه:٥] وقوله جل جلاله ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ [القصص:٨٨] وقوله سبحانه : ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** ﴾ [طه:٣٩] وقوله عز من قائل ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الفتح:١٠] وقوله سبحانه ﴿ **وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الزمر:٦٧] ثم قال : «**وجمهور أهل السنة ، ومنهم السلف وأهل الحديث ، على الإيمان بها ، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ، ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها .**» (٥)

---

(١) ابن تيمية ؛ منهاج السنة النبوية ؛ جـ ١ ص ١٧١

(٢) الإمام الصادق ؛ فقرة رقم ١٨٤ ص ٢٣٣

(٣) رسالة التوحيد ؛ ص ٣٦

(٤) انظرْ : الماتريدى ؛ تأويلات أهل السنة .

(٥) السيوطى ؛ الإتقان فى علوم القرآن ؛ جـ ٢ ص ٨٧

ويرى ابن خلدون أن المتأخرين من المحدِّثين وَلَجُوا فى باب التشبيه فى قولهم فى الاستواء ؛ فيقول إنهم : «ارتبكوا فى مَحْمَل هذه الصفات (الاستواء والمجئ والنزول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك) فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى ، مجهولة الكيفية ، فيقولون فى ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] : نثبت له استواءً ، لا بحسب مدلول اللفظ ، فراراً من تعطيله ، ولا نقول بكيفية ، فراراً من القول بالتشبيه الذى تنفيه آيات السلوب من مثل قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] و ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ... ولا يعلمون مع ذلك أنهم وَلَجُوا من باب التشبيه فى قولهم بإثبات الاستواء . والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه : الاستقرار والتمكن ؛ وهو جسمانى . » (١)

والصواب عند ابن خلدون العدول عن المعانى الحقيقية إلى المجازات ، كما فى قول الله تعالى ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : ٧٧] أى الجدار ، والجدار لا إرادة له ، فالإرادة هنا على المجاز ، لا على الحقيقة . (٢)

وأهل السنة ينكرون التشبيه . فيقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله إن الله تعالى : «لا يشبه شيئًا من خَلْقه ، ولا يشبهه شىء من خَلْقه ، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين : يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا . » (٣)

ويقول ابن حزم الظاهرى إن الله تعالى : «لا يشبهه عز وجل شىء من خَلْقه فى شىء من الأشياء . قال عز وجل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وقال تعالى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] «وإنه تعالى لا فى مكان ولا فى زمان ، بل هو تعالى خالق الأزمنة والأمكنة . قال تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] . ووصف ابن حزم حديث النزول فقال : «إنه فعلٌ يفعله عز وجل ، ليس حركة ولا نقلة . » «فالحركة والنقلة من صفات المخلوقين ، حاشى لله تعالى منها . » وأثبت ابن حزم لله تعالى يداً ووجهًا وعينًا : «وكل ذلك حق . » لأن القرآن والسّنة أثبتا هذه الصفات ، ولا يجوز أن يُزاد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ؛ ص ٤٣٤ (٢) الموضع نفسه .

(٣) مختصر العقيدة الطحاوية ؛ ص ٢١

على ما جاء فيهما أو يُنْتَقَص منه شيء .[1] والقاعدة المعتبرة هنا أن الله تعالى : « يجب أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تشبيه . »

ويُرجع ابن خلدون هذه الاختلافات فى العقيدة إلى النصوص ذاتها :« وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل فى آى كثيرة ، هى سلوب كلها وصريحة فى بابها ، فوجب الإيمان بها . ووقع فى كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها . ثم وردت فى القرآن آىٌ أخرى قليلة تُوهم التشبيه مرة فى الذات وأخرى فى الصفات . »

« فأما السلف فغلَّبوا أدلة التنزيه ، لكثرتها ووضوح دلالتها ، وعلموا استحاله التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله ، فآمنوا بها ، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل ، وهذا معنى قول الكثيرين منهم :« اقرءُوها كما جاءت » أى آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا لتفسيرها ، لجواز أن تكون ابتلاء » ، فيجب الوقوف والإذعان له . »[2]

لكن الألفة الشديدة لألفاظ اللغة تجر القارئ إلى إسقاط معانيها المعجمية المعروفة على الموصوف حيثما استعملت ، فيخيم التشبيه على ذهنه دون إرادة منه . والتأويل يساعد على الفرار من ذلك .

● الإمام محمد عبده

وفى العصور الحديثة جرت بعض المحاولات لتقديم مذهب أهل السُّنة فى شروح مبسطة ؛ و« رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده رحمه الله كانت مفيدة جداً ، لأن الكتب التراثية صعبة على القارئ الحديث . ومثل هذا حدث فى المذهب الإمامى ، فألف الإمام المرجع السيد محمد الحسينى الشيرازى كتاب

---

(١) المحلَّى ؛ أرقام ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٢ – جـ ١ ص ٢٩ – ٣٣

(٢) مختصر العقيدة الطحاوية ؛ ص ٣٢١

(٣) مقدمة ابن خلدون ؛ ص ٤٢٧ – ٤٢٨

«العقائد الإسلامية» [1] وكتب ناصر مكارم الشيرازى :«عقيدتنا» – مختصر عقيدة الشيعة الإمامية» ؛ نشر دار الهدف بالقاهرة . وقد عانيت الكثير بسبب ندرة المؤلفات الشيعية التى كتبها أبناء المذهب أنفسهم والتى يعتد بها كمصادر معتبرة .

– وقد شرح الشيخ محمد عبده بعض صفات الله فقال :

١ – صفة الإرادة : «هى صفة تخصص فِعلَ العالم (وهو هنا الله جل جلاله) بأحد وجوهه الممكنة» فالفعل يمكن أن يقع على وجوه مختلفة ، وإرادة الله التى تخصص الوجه الذى يقع عليه .

٢ – صفة القدرة والاختيار : «وهى صفة (يتم) بها الإيجاد والإعدام . »

٣ – صفة الوحدة : «ومما يجب له صفة الوحدة ذاتًا ، ووصفاً ووجوداً وفعلاً» .

وعن بعض الصفات السمعية (أى التى وردت فى القرآن الكريم والسّنة المطهرة) كتب الشيخ الإمام :

١ – صفة الكلام :«فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنًا من شؤونه» .

٢ – صفة البصر : «ومما ثبت له بالنقل صفة البصر ، وهى : ما به تنكشف المبصرات» .

٣– وصفة السمع ، وهى :«ما به تنكشف المسموعات ؛ فهو السميع البصير . لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآله ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا» .[2]

ويتسم كتاب السيد محمد الحسينى الشيرازى بأنه يقدم العقيدة للمؤمنين ويدحض افتراءات الملحدين . وقد عرض لصفة الوحدانية والعلم والسمع والبصر

---

(١) دار الجميع للنشر ؛ بيروت ؛ سنة ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ - ط١

(٢) رسالة التوحيد ؛ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢، ٧٣

والقدرة والحكمة والإرادة والخَلْق . ولم يتطرق إلى المقارنة بين المذهب الإمامى والمذهب السُّنى . وكل ما قاله يمثل المذهبين ، ولا يخص أحدهما ، باستثناء ما كتب عن الإمامة والأئمة حيث التزم بالمذهب الإمامى .

● الموقف من المتشابهات فى الحديث

وعن المتشابهات فى الحديث ، كحديث الرؤية ، يقول الترمذى : إن مذهب أهل العلم من الأئمة أنهم قالوا :« **نروى هذه الأحاديث كما جاءت ونؤمن بها ، ولا يُقال كيف ، ولا نفسر ، ولا نتوهم** » . « وذهبت طائفة من **أهل السُّنة إلى أننا نؤولها على ما يليق بجلاله تعالى** . هذا مذهب الخلف » .(١)

وقال ابن دقيق العيد :« إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب، لم يُنكر أو بعيداً توقّفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذى أُريدَ به مع التنزيه . قال : وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب ، قلْنا به من غير توقيف ، كما فى قوله تعالى ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر:٥٦] فنحمله على حق الله وما يجب له » .(٢)

معنى هذا أنه يريد النظر فى المتشابه آية آية وحديثًا حديثًا ، وأن يتجنب التعميم فى قبول التأويل أو رفضه . وفى اعتقادى أن هذا المنهج هو الأقرب إلى الصواب ، فإن التدقيق فى فهم الآيات والأحاديث يكشف عن فروق تجعل التأويل مستساغاً أو غير مستساغٍ . وإذا وجدنا الآية تقبل التأويل دون تعسف أو خروج على لسان العرب ، فإن اللجوء إلى المجاز مَخْرَج معتبرٍ للتأويل ، « وقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة . . وَلَوْ وَجَبَ خُلُوُّ القرآن من المجاز ، لَوَجَبَ خُلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص ، وغيرها » .(٣)

ومعلوم للكافة أنه لا يخلو من ذلك .

ويشرح « الماتريدى » – المتوفى سنة ٣٣٣ هـ – مذهب أهل السُّنة فيقول إن : « **الأصل فى هذا ونحوه (يقصد المتشابه) أن إضافة هذه الأشياء إلى الله عز وجل**

---

(١) نفسه ؛ ص ٨ . (٢) نفسه ؛ جـ ٢ ص ٤٧ . (٣) الموضع نفسه .

لا تُوجب حقيقة وجود تلك الأشياء منه على ما يوجد في الأجسام ... «والأصل أن الإتيان والانتقال والزوال في الشاهد إنما يكون لخلتين : إما لحاجة بَدَتْ فيحتاج إلى الانتقال من حال إلى حال ، والزوال من مكان إلى مكان ، ليقضيها ، أو لسآمة ووحشة تأخذه ، فينتقل من مكان إلى مكان لينفي عن نفسه تلك السآمة أو الوحشة. وهذان الوجهان في ذي المكان . والله تعالى يتعالى عن المكان ، كان ولا مكان ، فهو على ما كان . فالله تعالى يتعالى عن أن تَمسَّه حاجة ، أو تأخذه سآمة ، فَبَطُل الوصف بالإتيان والمجيء والانتقال من حال إلى حال أو من مكان إلى مكان».[1]

● تأويلات المعتزلة

واتخذ المعتزلة منهج تأويل المتشابهات باصطناع المجاز ، وهذه نماذج لتأويلاتهم :

– قوله تعالى ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] يعني : «بقدرتي وعلمي» .

– قوله جل ثناؤه ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:٦٤] تأويله : بل نعمتاه مبسوطتان على خلقه : رزق موسع ورزق مضيق ، ينفق كيف يشاء» .

قوله جل ثناؤه ﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك:١] يعني : له المُلك . وكذلك تقول العرب المُلك بيد فلان ، وقد قبض فلان المُلك والأرض ، وذاك في قبضته وبيمينه يُعنون : في قبضة الله بيمينه ، يعني في قدرته وملكوته وسلطانه اليوم ويوم القيامة، وفي كل وقت».[2]

بهذا المنهج يتجنب المعتزلة التشبيه والتجسيم ؛ وهو منهج العدول إلى المجاز لاستحالة الأخذ بالمعاني الحقيقية للألفاظ . لكنهم وقعوا في خطأ آخر هو : نفي الصفات ، ولذلك أُطلق عليهم اسم «النفاة» وقد انتقدهم أهل السُّنة ، فقال ابن تيمية :«إنه من أصول ضلالهم أنهم ظنوا أنهم متى وَصَفوا الله تعالى بصفة إثبات

---

(١) الماتريدي (محمد بن محمد بن محمود) ؛ تأويلات أهل السُّنة ؛ ص ٤٣٦

(٢) القاسم الرسي : كتاب العدل والتوحيد (ضمن رسائل العدل والتوحيد) جـ ١ ص١٠ .

أو نفي كان فيه تشبيه بذلك ، ولم يعلموا أن **التشبيه المنفى عن الله هو : ما كان وصفه بشيء من خصائص المخلوقين ، أو يُجعل شيء من صفاته مثل صفات المخلوقين ، بحيث يجوز عليه ما يجوز عليهم ، أو يجب له ما يجب لهم ، أو يمتنع عليه ما يمتنع عليهم مطلقًا ، فإن هذا هو التمثيل الممتنع المنفى بالعقل مع الشرع ، فيمتنع وصفه بشيء من النقائص ، ويمتنع مماثلته غيره له فى شيء من صفات الكمال . فهذان جماع لما يُنزه الرب تعالى عنه**».[1]

وأخذ الماتريدى على المعتزلة أنهم لا يصفون الله بالعلم .[2]

ويختلف أهل السُّنة مع الشيعة الذين ساروا على نهج المعتزلة فى نفي الصفات خشية التعدد والتشبيه والتجسيم ، وهم بعض الشيعة المتأخرين . **أما مذهب الإمام علي ومذهب ابن عباس فهو مذهب أهل السُّنة ، كما سبق أن أشرت .**

● عقيدة واحدة

إن أهل السُّنة متحدون فى عقيدة التوحيد والتنزيه مع أئمة الشيعة . وعلى كل من شذ عن هذه العقيدة ، كالمعتزلة والمجسمة والمشبهة ، أن يعودوا إليها ، فهى أساس الاتحاد الوطيد بين المسلمين . والقاعدة الذهبية فى الصفات تقول إن الله تعالى : « يجب أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تشبيه ».[3] **ومن الواضح أن هذه ليست دعوة للشيعة لاعتناق مذهب أهل السُّنة، بل دعوة لهم للالتزام بعقيدة إمامهم الأول - علي بن أبى طالب ، رضى الله عنه** - وسوف أجد نفسى أعيد هذه الدعوة فى الفصول القادمة تحت إملاء الحقائق الإسلامية .

● نفي التشبيه والتجسيم

ويتفق أهل السُّنة والشيعة الإمامية فى نفي التشبيه والتجسيم عن الله تعالى .

---

(١) منهاج السنة النبوية ؛ جـ ٣ - ١٥١

(٢) تأويلات أهل السنة ؛ ص ٥٩٢

(٣) مختصر العقيدة الطحاوية ؛ ص ٣٢١

فيقول الإمام أبو حامد الغزالى فى بيان عقيدة أهل السُّنة إن الله تعالى :«ليس بجسم مصوَّر ، ولا جوهر محدود مُقدَّر . وإنه لا يماثل الأجسام ، لا فى التقدير ، ولا فى قبول الانقسام . وإنه ليس بجوهر ، ولا تحله الجواهر ، ولا بَعَرض ولا تحله الأعراض ، بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود . ليس كمثله شىء ، ولا هو مثل شىء . وإنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات ؛ وإنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده ، منزهًا عن المماسة والاستقرار والتمكين والحلول والانتقال . لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته. وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى ، فَوْقية لا تزيده قربًا إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شىء شهيد . . . »[١]

ثم يثبت الغزالى لله تعالى صفات : الحياة والقدرة والعلم والإرادةوالسمع والبصر والكلام .

وقد نَفَى الإمام الصادق التجسيم والتشبيه فقال إن الله تعالى : «لا جسم ولا صورة ، وهو مُجَسِّم الأجسام ومصوِّر الصور . لم يتجزأ ، ولم يتناه ، ولم يتزايد ولم يتناقص . ولو كان كما يقولون – يشير إلى المشبهة والمجسمة – لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق ، ولا بين المنشِىء والمنشَأ» **ونَفَى التشبيه بقوله إنه تعالى :«لا يشبهه شىء ، ولا يشبه هو شيئاً»**.[٢]

وكان السلف من أهل السُّنة يحترزون عن التشبيه حتى قالوا : «من حرك يده عند قراءة قوله تعالى ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾[ص:٧٥] أو أشار بأصبعه عند روايته : «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، وَجَبَ قطع يده وقلع أصبعيه».[٣]

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ١ ص ٨٩

(٢) محمد الحسينى المظفرى ؛ الإمام الصادق ؛ ص ١٩٠ – ١٩١

(٣) الشهرستانى ؛ الملل والنحل ؛ جـ ١ ص ١٠٤

● المشبهة الحشوية

وعلى الرغم من تلك التحذيرات الشديدة والوعيد المخيف ، ظهر بين أهل السُّنة وبين الشيعة من تورط فى القول بالتشبيه (راجع المبحث السادس) . وقد ذكر منهم الشهرستانى : مُضَر ، وكَهْمَس ، وأحمد الهجيمى . وهؤلاء أجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ؛ **وقال داود الجواربى :«اعفونى من الفرج واللحية واسألونى عما وراء ذلك ! »** [1] **وهذا منتهى الفجور والكفر !**

وكذلك تباينت مواقف الشيعة الإمامية ، فذهب هشام بن سالم الجواليقى إلى أن الله على صورة الإنسان ، لكنه ليس بلحم ولا دم . إنه نور ساطع يتلألأ بياضاً ، وإنه ذو حواس خمس ، كحواس الإنسان . وكذلك زعم هشام بن الحكم أن معبوده جسم ، له نهاية وَحَدّ ، طويل عريض عميق . . إلخ [2] وهذا كله ضلال فى نظر الشيعة والسنة جميعاً .

هؤلاء وأولئك :« وقعوا فى التجسيم الصريح ، ومخالفة آي التنزيه المطلق ، التى هى أكثر موارد وأوضح دلالة ، لأن معقولية الجسم تقتضى النقص والافتقار ، وتغليب آيات السلوب . . . ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم :« جسم لا كالأجسام! » وليس ذلك بدافع عنهم ، لأنه قول متناقض وجَمْعٌ بين نفي وإثبات » . [3]

● القضاء والقدر

والإيمان بالقضاء والقدر عقيدة إسلامية قرآنية ، وردت بها عدة آيات ، وعدد من الأحاديث ؛ كما وردت آيات تقرر حرية إرادة العباد :

- قال تعالى ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر:٤٩] .

- وقال سبحانه ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** ﴾ [الأنعام:١٢٥]

---

(١) نفسه ؛ جـ ١ ص ١٠٥ (٢) ابن تيمية ؛ جـ ١ ص ٢٠٣

(٣) عبد الرحمن بن خلدون ؛ المقدمة ؛ ص ٤٢٨

- وقال سبحانه ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]

- وقال جل جلاله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

[الطلاق:٣]

- وقال أيضا ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام:١٠٧]

- وقال سبحانه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام:١١٢].

- وقال سبحانه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

[يونس:٩٩]

- وقال سبحانه ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠]

● وهذه بعض الآيات التى تعزز حرية العباد :

- قال تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

[الكهف:٢٩]

- وقال كذلك ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

[الإنسان:٢٩]

- وقال جل جلاله ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر:٣٧]

- وقال سبحانه ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس:١١]

وقد فسر الإمام الطبرى رحمه الله الآية رقم ١٢٥ من سورة الأنعام فقال :« إن السبب الذى به يوصل إلى الإيمان والطاعة غير السبب الذى به يوصل إلى الكفر والمعصية ، وإن كلا السببين من عند الله ».(١) ولم يهتم الطبرى بمناقشة اللوازم العقلية التى تترتب على مذهبه هذا الجبرى ، وأهمها نفي حرية الإرادة التى هى مسوغ الحساب .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ١ ص ١٠٨

● القَدَر فى السُّنة

والسُّنة النبوية تؤيد المذهب الجبرى . فعن علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « كنا جلوسًا » عند النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، وبيده عُود . فنكت فى الأرض ، ثم رفع رأسه فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومعقدُه من النار » . قيل : يا رسول الله ! أفَلاَ نتكل ؟ قال : « لا ، اعملوا ولا تتكلوا ، فكلٌ ميسَّر لما خُلق له » .(١) وهذا حل إيمانى للمسألة ؛ وسنرى أنه لا حل سواه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : « **كل شيء بقَدر ، حتى العجز والكيس** » . قال ابن حجر :« ومعناه أن كل شيء لا يقع فى الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته ، وإنما جعلها فى الحديث غاية لذلك للإشارة إلى أن أفعالنا – وإن كانت معلومة لنا ومرادة منا – فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله » .(٢) وأضاف ابن حجر قوله :« **ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى** » .(٣) .

وأخرج مسلم فى صحيحه حديث جبريل حين نزل يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وقد جعل النبى الإيمان بالقَدَر – خيره وشره – جزءًا من الإسلام » .(٤)

والكتاب والسُّنة هما الطريق المشروع لمعرفة القضاء والقَدَر . وفى هذا يقول أبو المظفر بن السمعانى ، المحدِّث الكبير :« سبيلُ معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة ، دون مَحْضِ القياس والعقل ، فمن عَدَلَ عن التوقيف فيه ضل وتاه فى بحار الحيرة ، ولم يبلغ شفاء العين ، ولا ما يطمئن به القلب ، ولأن القَدَر سرٌّ من أسرار الله تعالى ، اختص العليم الخبير به ، وضرب دونه الأستار ، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لِمَا عَلِمَهُ من الحكمة ، فلم يعلمه نبى مُرسل ، ولا مَلَك مُقَرب » .(٥)

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ؛ رقم ٧٨ – جـ ١ ص ٣٠

(٢) فتح البارى ؛ كتاب القَدَر ؛ رقم ٦٥٩٥ – جـ ١١ ص ٤٧٧

(٣) الموضع نفسه . (٤) صحيح مسلم بشرح النووى ؛ جـ ١ ص ١٥٧

(٥) فتح البارى ؛ كتاب القدر رقم ٦٥٦٥ جـ ١١ ص ٤٧٧

● رأى علي

وقال أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رضى الله عنه لرجل سأله عن القَدَر : « بحر عميق فلا تلجه ! » فأعاد الرجل السؤال فقال له :« **طريق مُظلم فلا تسلكه !** » فعاود السؤال ثالثة فقال له :« **سر الله فلا تتكلمه !** »[1] **وعلى هذا يمكن القول إن مذهب الإمام علي هو نفسه المذهب الذى** عبّرت عنه أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وآله . وإذا سائر المتأخرون من الشيعة الإمامية مذهبَ المعتزلة فإنهم يكونون قد خالفوا إمامهم الأول !

إن البشر لم يكفوا عن السؤال عن القَدَر . وحاول الفلاسفة تقديم إجابات عقلية فأخفقوا ، وتناقضوا بين جبرية مطلقة وحرية مطلقه ، ومركبات متنافرة من الجبرية والحرية ! أو : « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين ».[2]

وأما الحياة العملية فتقوم على أساس أن الإنسان حر الإرادة ، ومن ثم كان الثواب والعقاب هو عماد النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والأخلاقى . **وإذا كانت حرية الإرادة لا يمكن إثباتها ، كان محتمًا أن نعترف بأن الحياة البشرية تقوم على مسلَّمة غير مبرهن عليها !** وهذه الحقيقة هى التى عبر عنها الحديث الشريف « **كلٌ مُيسَّرٌ لما خُلق له** » وقول علي رضى الله عنه « **سر الله !** » وقول السمعانى « **سر من أسرار الله تعالى** ».

لكن أقواماً من أبناء الإسلام أصروا على النظر فى القَدَر ، وخاضوا فى بحاره العميقة ، متأثرين بالفلسفة ، وانتهوا إلى مذاهب متناقضة ، بعضها يؤكد أن الإنسان مُخَيَّر وبعضها يؤكد العكس ، وبعضها يحاول التوفيق بين الطرفين المتناقضين ، وهيهات!

● علم الله سابق وشامل

ويذكر أن أول من قال بالقَدَر بالبصرة « مَعْبَدٌ الجُهَنىَ ».[3] ويعنى أنه قال : لا قَدَر ! وإن الله يعلم بما يفعل بعد وقوعه ! »[4] **ومن الجلي أن هذه المقولة**

---

(١) السيد حيدر الحلى ؛ الكلام الجلي ؛ ص ٣٩

(٢) المجلسى ؛ بحار الأنوار ؛ جـ ٥ باب ١ ص ١٢

(٣) صحيح مسلم ؛ جـ ١ ص ١٥٠

(٤) نفسه ؛ الشرح ؛ جـ ١ ص ١٥٦

تصادم عدداً من آيات القرآن التى تبين أن علم الله تعالى شامل وسابق :

- قال تعالى« ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:١٩٧]

- وقال سبحانه ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [آل عمران:٢٩]

- وقال جل جلاله ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩]

- وقال سبحانه ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد:٨-٩]

- ويقول جل ثناؤه ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [غافر:١٦]

هذه الآيات الكريمات تبين بوضوح أن الله تعالى يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، ولا يخفى عليه شيء فى مُلكه ، ولا يقع فيه شيء دون علمه ؛ وعمل الإنسان كله معلوم لله سلفاً ، سواء أخفاه فى صدره أم جهر به ؛ سواء كان مجرد عمل قلبى أو نشاط ذهنى أو كدح فى عالم الواقع . فعلم الله تعالى شامل شمولاً تاماً مطلقاً لكل ما كان وكل ما سيكون إلى أبد الآبدين .

- كيف نفسر الحساب العادل ؟

لكن معنى علم الله الشامل السابق أننا لسنا أحرار الإرادة . فليس بوسع إنسان أن يفعل شيئا لم يكتبه الله له . وإذا لم يملك الإنسان إرادة حرة ، كيف يحاسبه الله ، ويثيبه ويعاقبه ؟ أليس ذلك ظلماً ؟

- هذه هى المشكلة العويصة التى واجهت المفكرين المؤمنين بالله ، سواء كانوا مسلمين أو يهود أو نصارى أو غيرهم . **فإذا أثبت المفكر علم الله الشامل ، عجز عن إثبات صفة العدل له تعالى ، وهى صفة مؤكدة لذاته العلية . وإذا**

أثبت صفة العدل ، اضطر إلى القول بحرية الإرادة ، وعجز عن إثبات علم الله الشامل ! ولم ينج الفلاسفة غير المؤمنين بالله من مأزق مماثل . فهم يعترفون بأن المرء من بنى الإنسان يرث أهله بيولوجيا ، فقواه العقلية والبدنية والروحية وميوله الأخلاقية موروثة . وتأتى التربية لتصُوغ الفرد البشرى فى القالب الاجتماعى السائد . وليس بوسعه أن يفلت من تأثيرات الأسرة والمدرسة والفنون والآداب والتقاليد . والتسليم بهذه التأثيرات يجعل من العسير إثبات حرية الإرادة ، ومن ثم تسويغ النظم العقابية القانونية والأخلاقية . وفى ضوء هذه الحقائق اختلف الفلاسفة أشد الاختلاف ، فأنكر بعضهم حرية الإرادة إنكاراً تاماً مثل اسبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧م) وأكد آخرون أن الإنسان حر حرية تامة ، حتى فى اختيار والده ، كما قال أحد الوجوديين المعاصرين !

وكما سبق أن ذكْرت ، **اتفق أهل السُّنة وأئمة الشيعة الإمامية ، على توكيد علم الله الشامل ، وعلى عدله المطلق . وإن لم يستطع العقل المنطقى التوفيق بين الصِّفتيْن** (العلم الشامل ، والعدل المطلق) [١] . وأما المعتزلة فقد أكدوا صفة العدل ، ولذلك قالوا بحرية الإرادة ، لكنهم تورطوا فى إنكار صفة العلم الشامل . وتأثر بهم بعض الشيعة الذين اختلطوا بهم ، متناسين أقوال أئمتهم (علي وابن عباس والباقر والصادق عليهم السلام) .[٢]

● دفاع أئمة السنة عن عقيدتهم

ودافع الإمام الطبرى رحمه الله عن مذهب أهل السُّنة . قال القَدرية والمعتزلة من بعدهم :« إن إزاغة الله قلب مَن أزاغ قلبه من عباده عن طاعته ، وإحالته له ، فيها جَوْر! ». يقول الطبرى :« لأن ذلك – لو كان كذلك – لكان الذين قالوا : ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ [آل عمران :٨] بالذَّم أولى منهم بالمدح ! لأن القول – لو كان كما قالوا – لكان القوم إنما سألوا ربَّهم بمسألتهم إياه أن لا يزيغ

---

(١) راجع : ابن حزم ؛ المحلى ؛ أرقام ٦٩ ، ٧٢ جـ ١ ص ٣٧

(٢) راجع مثلا : رسائل العدل والتوحيد ؛ رسالة الحسن البصرى فى القدر ؛ جـ ١ ص ٨٣ – ٨٨ ؛ السيد حيدر الحلى ؛ الكلام الجلي ؛ ص ٣٩

قلوبهم ، أن لا يظلمهم ولا يجور عليهم ! وذلك من السائل جهل ، لأن الله جل ثناؤه لا يظلم عباده ولا يجور عليهم . وقد أعلم عباده بذلك ونَفَاهُ عن نفسه بقوله ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] (١)

وعارض الإمام الشافعي توجهات الجهمية والمعتزلة والمتكلمين المتأثرين بالفلسفة العقلية فقال : « **إن للعقل حدًّا ينتهي إليه ، كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه** » (٢) وفي العصر الحديث ، سَعَت الفلسفةُ النقدية لعما نويل كانط (توفى سنة ١٨٠٤ م) إلى الكشف عن محدودية العقل المحض ، وكيف أنه يتورط فى التناقضات إذا زُجَّ به فى المسائل الميتا فيزيقية ، دون سند من الحواس ، مثل مسألة حرية الإرادة وخلود الروح ووجود الله .. الخ . (٣)

وينقد الشيخ محمد عبده توجهات المعتزلة والجهمية فيقول : « تفرقت السُبل بأتباع واصل بن عطاء الغزال – وهو رأس المعتزلة – وتناولوا من كتب اليونان مَالاَقَ بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تُؤَيَّد العقائد بما أثبته العلم ، بدون تفرقة بين « ما كان منه راجعًا إلى أوَّليات العقل » و« ما كان سرابًا فى نظر الوَهْم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ولجُّوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تُعد بالعشرات ، وأيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة » . (٤) وقصة تعذيب الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – معروفة ومخجلة ، وعار على عهد الخليفة المأمون ومن بعده المعتصم !

● ركيزة اتفاق

● **إذن ، مسألة القدر مسألة خلافية بين بعض الشيعة وبعض السّنة ، وركيزة اتفاق بين الأئمة الكبار فى المذهبين** . وعلى الرغم من هذا يتفق الجميع على عدالة الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، ضار بين عرض الحائط باللجاج

---

(١) سورة فصلت تفسير الطبرى ؛ آل عمران جـ٦ ص ٢١٢

(٢) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٢٧١

(٣) موضوع كتابه الشهير Critigue of Pure Reason

(٤) رسالة التوحيد ؛ ص ٣٣

الطويل العريض الذى تفجر ، ولا يزال ، حول قضية حرية الإرادة : « وفى الإسلام لا تنتفى الحرية بإثبات إرادة الله النافذة ، ولا بتوكيد علمه السابق الشامل ؛ ولا تنتفى أيضًا بالاعتراف بضغط الميول الفطرية أو تأثيرات البيئة الاجتماعية والثقافية . الإكراه الخارجى المباشر هو وحده الذى يُعتبر قَسْرًا نافيًا للحرية » . (١) كالعواصف والزلازل التى قد تضطر الإنسان إلى التقصير فى واجباته ، أو عمل بعض الآثام ؛ وكذلك إجبار المرء على قول خطأ أو فعل إثم ؛ وكذلك الخطأ الذى ينتج عنه أذىً للآخرين ، كحوادث السير التى صارت وباءً اليوم !

● الرؤية فى عقيدة علي

واختلف أهل السُّنة والشيعة حول هذه العقيدة . فالشيعة ينكرون رؤية البشر لله تعالى فى الدنيا والآخرة . (٢) وهم يؤولون قول الله تعالى ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] بمعنى انتظارها رحمة الله . (٣)

ولكن الإمام علي بن أبى طالب له قول يخالف قول الشيعة! فقد قال إن الله : « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، **ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان** » . (٤) وهذا القول يحتمل تفسيرات عديدة . فهو ينفى الرؤية بالعيون التى يبصر بها البشر موجودات الدنيا ، والتى لا ترى إلا الأجسام ، وبشرط وجود الضوء ، وسلامة البصر ، والمخ الذى يستقبل الصور ويترجمها . **والشيعة والسُّنة يؤمنون بأن الله تعالى ليس بجسم ، ومن ثم يستحيل رؤيته بالباصرة البشرية الدنيوية . فالمذهبان متفقان فى هذا النفي .**

وقول علي يثبت الرؤية بالقلوب ، بحقائق الإيمان . وهذه العبارة تحتمل تفسيرات متباينة ، فالقلب أداة للإدراك العقلى ، والله تعالى يقول : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا**

---

(١) د . أحمد عبد الرحمن ؛ الفضائل الخلقية فى الإسلام ؛ دار الوفاء ؛ ط سنة ١٤٠٩ هـ ؛ ص ٣٨ ؛ ١٩٨٩ م .

(٢) عبد الرسول الموسوى ؛ الشيعة فى التاريخ ؛ ص ٤٧ -٤٨

(٣) تفسير الطبرى ؛ رقم ١٣٦٩٤ - جـ ١٢ ص ١٣ - ١٧

(٤) نهج البلاغة ؛ الخطبة رقم ١٧٩

فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] وهو أداة للإدراك النُّورانى كما فى قوله تعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢] وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم وآله عن ذلك النور فقال : «نعم، يدخل القلب نور». (١) وفضلاً عن هذا فإن «مفهوم القلب فى القرآن الكريم يثير أسئلة عديدة (٢) ولا بد أن نتساءل عن إدراك القلوب لله هل يقع فى الدنيا أم فى الآخرة ، أم فى الإثنتين ؟ وهل «حقائق الإيمان» هى اليقين بوجود الله ، أم هى شىء آخر ؟ وكيف نوفق بين كلمة الإمام علي وبين ما جاء فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف ؟

● عقيدة أهل السنة

أما أهل السُّنة فيؤمنون بوقوع رؤية العباد لربهم يوم القيامة لقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] (٣) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله حين سئل عن رؤية العباد لربهم يوم القيامة ، فقال : «نعم ، هل تضارُّون فى رؤية الشمس بالظهيرة صَحْوًا ليس معها سحاب ؟ أو هل تضارُّون فى رؤية القمر ليلة البدر صَحْوًا ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال :«ما تضارُّون فى رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما» (٣) واستند ابن حزم إلى الآيتين الكريمتين ، وإلى قول النبى صلى الله عليه وسلم وآله : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا – ونظر إلى القمر – لا تضارون فى رؤيته». لكي يقول : «إن الله تعالى يراه المسلمون يوم القيامة بقوة غير هذه القوة». (٤) والآية الكريمة تقول ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ .. ﴾ ولا تقول «أبصار» أو «أعين» .

وهكذا يتفق ابن حزم مع الإمام علي فى الإشارة إلى قوة إدراكية غير العَيْن

---

(١) تفسير القرطبى ؛ جـ ٣ ص ٢٥١٧

(٢) راجع كتابى : مفهوم القلب فى القرآن الكريم ؛ صدر سنة ٢٠٠٠م ؛ ص ٣٧

(٣) صحيح مسلم ؛ جـ ٣ ص ٢٥ –٢٦

(٤) المحلَّى ؛ رقم ٦٣ جـ ١ ص ٣٤

الدنيوية . وقد أشار الإمام على إلىّ طبيعتها كأداة قلبية تتصل بحقائق الإيمان ، فى حين أشار ابن حزم إلى وجود تلك القوة دون أن يصفها بأية نعوت .

– **وأنا أرجح وجود تلك القوة فى الآخرة دون الدنيا . فرؤية الله فى الدنيا غير ممكنة عند الشيعة وعند أهل السُّنة** . حتى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم وآله ليلة الإسراء وقع فيها الاختلاف بين قول أم المؤمنين عائشة بنفى الرؤية ، ومعها أبو هريرة وجماعة من الصحابة ، وما روى بالإثبات عن ابن عباس وأُبَىٌّ والحسن البصرى ، رضى الله عنهم جميعًا . (١) وإذا ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وآله قد رأى ربه بعينه – كما نُسب ذلك لابن عباس – فإن تلك تكون معجزة له ولا يثبت بها إمكان الرؤية فى الدنيا لسائر عباد الله .

– **والرؤية فى الآخرة هى الأرجح ، استنادًا إلى القرآن والحديث الذى سبق أن أوردناه** . وفضلاً عن هذا يجب أن نتذكر أن الإنسان والبيئة لن يكونا فى الآخرة كما فى الدنيا . فماء الأنهار لا يأسنْ ، وألبانُها لا يتغير طعمها ، لأنه لا توجد هناك بكتريا . وسكان الجنة ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا** ﴾ [الواقعة:٢٥ – ٢٦] و ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا** ﴾ [النبأ:٣٥] ومعنى هذا أن البنية العقلية لإنسان الآخرة ستكون منزهة عن إمكانات اللغو والكذب . ومن الطبيعى أن يوازى هذه التغيرات الجذرية فى بيئة الآخرة فى عقلية إنسانها تغيرات فى قواه الإدراكية تمكنه من التمتع برؤية ربه ، فى الآخرة كما ينص على ذلك قوله تعالى ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة:٢٢ – ٢٣] فالقوة الناظرة ستكون فى الوجوه لا فى الأعين .

وكان من الضرورى تفسير قول الله ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام:١٠٣] لإزالة أي التباس فى مذهب أهل السُّنة القائلين بالرؤية فى الآخرة . ومن الممكن القول إن الآية الكريمة تنفى إدراك الأبصار لله تعالى فى الدنيا ؛ ولا أحد ينازع فى ذلك . لكن الطبرى ذهب إلى أبعد من

---

(١) صحيح مسلم ؛ جـ٣ ص ٥ .

هذا، فميز بين : «**الرؤية بالأبصار**» وبين «**الإدراك بالأبصار**» . : «فالمؤمنون وأهل الجنة يرون ربهم بأبصارهم ، ولا تدركه أبصارهم» . وإذا كان الأمر كذلك : «لم يكن فى **نفي إدراك الله** عن البصر ، **نفي رؤيته له**» .(١) لكن الرؤية بالأبصار تستدعى الجسمية ، وهى مرفوضة لدى السّنة والشيعة .

صفوة القول إذن إن أهل السُّنة يؤمنون برؤية الله تعالى فى الآخرة بقوة إدراكية أخروية غير العين البشرية الدنيوية ، وينفون إمكانها في الدنيا . ومن الممكن تفسير خطبة الإمام علي رضى الله عنه على نحو يوفق بينها وبين القرآن والحديث ، ولا يمكن تفسيرها على نحو يتنافى معهما . **وبهذا يتفق مذهب أهل السُّنة مع مذهب الإمام علي** . لكن الشيعة اليوم يختلفون مع أهل السُّنة . ومن ثم لا بد أن يفسروا آية الرؤية ، والأحاديث النبوية ، وخطبة «الإمام علي» بحيث تنفى إمكان الرؤية فى الدنيا والآخرة وبذلك يظل الخلاف قائماً .

لكن أحد الإصلاحيين الشيعة المعاصرين يقرر أن الروايات التى أخرجها الكلينى فى الرؤية ضعيفة ولاتُثبت الرؤية ولا تنفيها ، ثم إنها تتعارض مع آية الرؤية . وبحسب قول الإمام الرضا يجب تكذيب الروايات التى تتعارض مع القرآن، فيجب تكذيب تلك الروايات ، وتبعًا لذلك تثبت الرؤية فى الآخرة .(٢)

ومن الواضح أن الخلاف فى الرؤية ليس له انعكاسات عملية فى مجالات العبادات والمعاملات والأخلاق . وبهذا لا يكاد يشعر به عامة المسلمين . ولا يجوز بحال إصدار أحكام بالتضليل أو التفسيق أو التكفير بناء على هذا الخلاف فالفريقان اجتهدا وتأوّلا ، فوصل كل فريق إلى نتائج مختلفة .

ومن الواضح أيضاً أن إيمان السُّنى بنفى الرؤية فى الدنيا وإثباتها فى الآخرة لا يخرجه عن مذهبه ولا يلحقه بالمذهب الشيعى ؛ وكذلك الشيعى الذى يوافق أهل السُّنة فى «الرؤية» ، يظل شيعياً .

---

(١) تفسير الطبرى ؛ الآية رقم ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٢) آية الله العظمى البرقعى ؛ كسر الصنم ؛ ص ٩١

غير أن ابن تيمية يرى أن نفي الرؤية فى الآخرة هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة ، ومن ثم فمن ينفيها كافر .[1] ونحن لم نجد لدى السُّنة أو الشيعة نفياً باتّاً قاطعاً للرؤية . والخلاف يدور حول القوة الإدراكية التى سيرى بها العباد ربَّهم يوم القيامة . فلا محل للتكفير ولا مسوغ .

– ومن الشيعة من سخر من إثبات أهل السُّنة للرؤية ، واعتبر ذلك خرافة وإقراراً بالجسمية لأن الرؤية فى نظره لا يمكن أن تتم إلا بالأبصار الدنيوية ، والتى لا تعمل إلا بوجود جسم يسقط عليه شعاع ثم ينعكس على العين . وهذا غير صحيح . **فأهل السُّنة أثبتوا الرؤية فى الآخرة ، وبقوة أخروية ، لأن كل شيء فى الآخرة مختلف عن أشياء الدنيا كما سبق أن بينْت . فهذه السخرية نزق واستخفاف مشين بصاحبها ، فضلاً عن أنها سخرية بالإمام الأول للشيعة رضى الله عنه ، لأنه أثبت الرؤية بقوة قلبية .**

● البَدَاء ... هل يجوز على الله تعالى ؟

● فى المعاجم ، البَدَاء هو تغير الرأى أو القرار . فيقال : بَدَاله فى الأمر كذا ، يعنى : جَدَّ له فيه رأي . ويقال فَعَلَ كذا ثم بَدَا له ، يعنى رجع عما فعل . والبَدَاء يقع لكل إنسان ، ولكن هل يجوز أن يقال على الله تعالى ؟!

إخواننا الشيعة يقولون إنه يجوز ، ويستدلون على ذلك بالنسخ فى القرآن الكريم . والنسخ حقيقة قرآنية ثابتة ؛ والله تعالى يقول ﴿ **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ [البقرة:١٠٦] .

ويفسر د. موسى الموسوى ظهور فكر البَدَاء فى المذهب الإمامى فيقول إن المذهب يقتضى أن يكون الابن الأكبر هو وارث الإمامة عن أبيه . لكن الابن الأكبر للإمام الصادق – وهو إسماعيل – مات قبل وفاة أبيه ، فانتقلت الإمامة إلى أخيه موسى – الابن الأصغر للإمام الصادق – . فهذا التغيير فى سلسلة الأئمة اعتبر «بَدَاء» ، لأن الإمامة منصب إلهى كان مقدراً منذ الأزل لإسماعيل ، لكن البدَاء حدث لله – حاشاه سبحانه ! – فأعطى الإمامة إلى موسى ! .

---

(١) ابن تيمية ؛ مجموع الفتاوى ؛ جـ١٢ ص ٤٩٧

– ويقرر الدكتور موسى الموسوى **أن القول بالبَدَاء فيه انتقاص فى حق الله تعالى ، ويطالب بحذف كل ما كتب عنه فى المؤلفات الشيعية وفى الدفاتر التى يقرأها العامة فى أثناء زيارتهم لقبور الأئمة ، لما فيها من كلام عن البداء.**(١)

– وينفى الشيخ أبو زهرة أن يكون الإمام الصادق قد قال بالبَدَاء على الله تعالى . ويفسر التغيرات التى تقع فيقول إن الله تعالى : «قَدَّر فى علمه الأزلى لكل حكم ميقاتاً وزماناً معلومًا . فإذا انتهى زمانه حل محله حكم آخر بأمره ونهيه سبحانه ، فليس فيه تغيير لعلمه الأزلى». (٢)

● عقيدة أهل السّنة

وينكر أهل السُّنة القول بالبَدَاء على الله تعالى . وينفى الإمام أبو حامد الغزالى (توفّى سنة ٥٠٥ هـ) البداء ، ويؤكد أن النسخ لا يعنى البداء . والقائلون بالبداء يستندون إلى روايات عن «علي» وعن جعفر بن محمد . وقالوا إن عليًا رضى الله عنه كان لا يخبر عن الغيب مخافة أن يبدو لله تعالى فيغيره ! وحكوا عن جعفر أنه قال ما بدا لله فى شىء كما بدا له فى إسماعيل ، أى فى أمره بذبحه !

– يقول الإمام الغزالى إن الدليل على استحالة البَدَاء على الله تعالى هو أنه سبحانه محيط بكل شىء علماً . وقوله سبحانه ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** ﴾ [الرعد :٣٩] معناه أنه يمحو الحكم المنسوخ ويثبت لنا الناسخ ؛ أو يمحو السيئات بالتوبة .(٣)

● تعقيب عام

وفى ختام هذا الباب يمكن أن نقول إن أهل السُّنَّة احترموا ظاهر النصوص فى مباحث العقيدة ، ولم يمارسوا التأويل إلا قليلاً وبشروط خاصة . وحيثما لوحظ تعارض بين بعض النصوص وبين مقررات العقل لجأ معظمهم إلى التفويض ، وقليل

---

(١) الشيعة والتصحيح ؛ ص ١٤٨

(٢) أبو زهرة ؛ الإمام الصادق ؛ فقرة رقم ١٨٩ ص ٢٤١

(٣) المستطفى ؛ ص ١٣١

منهم اصطنع التأويل . وبهذا المنهج نفسه تحدث أئمة الشيعة الاثنا عشرية ، وعلى وجه الخصوص الإمام علي بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما . ولكن المتأخرين من علماء المذهب الإمامى مالوا إلى نظريات المعْتزلة ، واصطنعوا التأويل منهجاً ، فقادهم إلى القدر ، أو القول إن الإنسان مخير لا مسَّير ، وإلى نفي الرؤية فى الدنيا والآخرة ، وغير ذلك من المقولات الاعتزالية .

– **وكان من اليسير ، بفضل الله تعالى ، الكشف عن وحدة العقيدة بين المذهبين ، على أساس من الكتاب والسُّنة وأقوال الرعيل الأول من الصحابة والتابعين** .ومن ثم يمكن القول إن التنزيل قرآناً وسنة ، هو البنية المتحدة الموحدة للعقيدة فى المذهبين ، وإن أية خلافات بينهما مردها إلى التعسف فى التأويل والتفسير أو إلى روايات غير صحيحة أو أصداء وتأثيرات لمذاهب فلسفية وكلامية تبلورت فى وقت متأخر .